للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٤ —

« ... أتذكر إذ التقينا وليس بيننا شابكة ، فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئاً في أساليب الحديث ، غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما ؟

« ... وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا في التلاقي بعد فراق طويل ، كأن في كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد ؟

« ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلتاهما أسلحتها ... وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب ؟

« وقلت لي بعينيك : أنا ... وقلت لك بعيني : وأنا ... وتكاشفنا بأن تكاتمنا ؟

« وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تقيض ببثها ؟

« وجذبتني سمتك الفكرية النبيلة التي تضع الحزن في نفس من يراها فإذا هو إعجاب ؛ فإذا هو إكبار ؛ فإذا هو حب ؟

« وعودت عيني من تلك الساعة كيف تنظران إليك ؟

« وجعلت أراك تشعر بما حولك شعوراً مضاعفاً كأن فيه زيادة لم تزد ؟

« وكان الجو جو قلبينا ...

« وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاتمنا مرة ثانية ... ؟ »

(هي)

« ... بما فاذا أصف مكاناً للحب كأنما مر به سر الخلود فإذا الوقت فيه لا يشبه نقصاناً من العمر بل زيادة عليه ؟ وكانت يا حبيبي كل دقيقة وثانيتها في مجلسك الساحر كأنها بعض الفكرة والحس لا بعض الزمان والمكان ...

« ... وكنت وما أشعر من سحرك إلا أني بازاء سر وضعني في ساعة من غير الدنيا وحصرني فيك وحدك ...

« وهاجتني من يقظتي واقتحمت علي من حذري ...

« وخليتني وعينيك ، وخليني وما كتب علي ...

« واتسعت روحي لتشملك ، فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين في غرفتك ولكن في داخل نفسي ..

« ... وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعانق أمامنا ويلثم بعضها بعضاً من حيث لا تراها إلا عيناي وعيناك

« وتراءت النفسان فملأتا المكان بأفراح الفكر ، واستفاض السرور على جمالك بمعنى كأنه الزهرة النضرة هو عطرها للنظر

« وقلت لي بجمالك : أنا .. وقلت لك بجمالي : وأنا .. »

(هو)

هي وهو ؟

إني لأعرفه عرفاني بنفسي ، فما بي شك فيما أكتب عن حبه ؛ ولقد خلطني بنفسه زمنا فاني لأسمع نجواه وأقرأ سره ، وأعرف ذات صوره ، فما أصف من حبه إلا مستيقناً كأنما أنقل عن لوح مسطور في فؤادي ، أو أثبت من حادثة في تاريخ أيامي ماثلة في نفسي بصورها وألوانها وحوادثها فما يغيب عني منها شيء . ولولا تقاليد الناس وآداب الجماعة لمزقت النقاب عن وجه الحديث وجلوته على القراء في بيان سافر كاشراق الضحى ، ولكن ... ولكنها هي ....

أما هي فما في يدي شيء من خبرها إلا ما حدثني به الرافعي أو حدثتني رسائله ، فما أتحدث عن حبها إلا راوية يكتب ما يسمع لا ما يشهد ، أو محققاً يضع كلمة إلى كلمة ، ويزاوج بين رسالة ورسالة ، ليخرج منهما معنى ليس في يده من حقيقته شيء إلا ما يهديه الفكر وصواب الرأي وملابسات الحادثة

وإنها لأديبة شاعرة يعرفها كثير من قراء العربية وأعرفها عرفانهم أو يزيد ، وحسبي هذا مقدمات إلى النتيجة ، وما يعسر على من يمسك طرف الخيط أن يصل إلى آخره ...

* * *

لقد التقيا وما بينهما شابكة ولا يربطهما سبب ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها حتى ارتبطا قلباً إلى قلب ؛ وكان الأدب رباط بينهما أول ما كان ، ثم استجرها الحديث إلى فنون من الكلام فكشفت له عن آلامها وكشف لها عن آلامه فكان عطف وإشفاق ؛ ثم تحدثت عن أحلامها وتحدث عن أحلامه ، فكان الحب ؛ ثم ... ثم كانت القطيعة حين بلغ الحب غايته ونال منالة من نفسها ومن نفسه ، فافترقا حين كان يجب أن يبدأ اللقاء ليتذوقا سعادة الحب ويقطفا من ثمراته ... وضرب الدهر من ضرباته فإذا هو تحت الرغام ، وإذا هي في المستشفى تتمرض من داء هيهات أن تجد له الدواء !

* * *

لم تكن (هي) تقصد الحب ولا تعمدته ولا كان هو ، ولكنها أديبة تعرف موازين الكلام ، لقيت الأديب الذي تعجب به ويفتنها بيانه ، فأحبته (عقلاً جميلا) كما تسميه في بعض رسائلها ...

* * *

وكان سعيه إليها يلتمس الشعر والحكمة ، والشعر والحكمة هما رابطها إليه وفاتنتها به ؛ فتصنعت له لتفتنه وتزيده شعراً وحكمة ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيد هي به ؛ لأنها وجدت به نفسها ، ووجدت به الشعر والحكمة والبيان ؛ فأحبته (أستاذها ومرشدها) لأنه أوحى إليها ما عجز دونه الآخرون ، لأنه فجر لها ينبوع الشعر وعلمها البيان هكذا تقول في بعض رسائلها ...

* * *

وهي فتاة لم يسالمها الدهر ولم تزل منذ كانت — غرضاً لسهام الأيام ، تنوشها الآلام من كل جانب ، ولها نفس شاعرة تضاعف أحزانها فتجعل لها من كل همٍّ همين ، وإن حواليها لكثيراً من الأصدقاء يزدلفون إليها ويخطبون ودها ، ولكن ... ولكنها تريد الصديق الذي يستمع إلى شكواها من الأيام فتستريح إليه ، أكثر مما تريد الصديق الذي لا تسمع منه إلا كلمات الزلفى والتحبّب واصطناع الهوى والغرام ... وتحدث إليها الرافعي وتحدثت إليه ، وقصت عليه من أحزانها فاخضلّت عيناه وأطرق فوضعت يدها على يده وهي تقول :

« سأدعوك أبي وأنى متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر ، وسأدعوك قوتي وعشيرتي ، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين ؛ وسأدعوك أخي وصديقي ، أنا التي لا أخ لي ولا صديق ؛ وسأطلبك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة ، أنا التي تتخيّل فيّ قوة الأبطال ومناعة الصناديد !

« وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان ، ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري ... ! »

وأحبته (صديقاً) تفزع إليه إذا ضاقت بآلامها وحزبتها الهموم ...

* * *

وهي الفتاة التي لم تعرف في حياتها إلا التجهم والعبوس ، ولم تعرف من دنياها إلا الجد الصارم ؛ وما كان لها من عمل غير الاستغراق في الفكر ، أو الاستغراق في الفن ؛ وإنها لأنثى وإن كانت فيلسوفة شاعرة ...

والرافعي رجل — كان — لايحمل من هم ، فما يدع النكتة ولا يترك المزاح والدعابة وإن الدنيا تصطرع حواليه ، وإن كان القضاء منه بمرصد يراه ويتوقعه ؛ وإنه ليهزل في أجدّ الجد وأحرج الساعات هزله في أصفى حالاته وأسعد أيامه ؛ فما يجالسه ذو هم إلا سُرِّي عنه كأنما يمسح قلبه فيمحو أحزانه ...

وتحدث إليها وتحدثت إليه ، فأحبته (الرفيق الأنيس) الذي تسيطر عليها روحه فينتزعها من دنياها العابسة إلى دنياه ..

* * *

واستمعت إلى صوته يتحدث ، فكان له في نفسها رنين ؛ ونظرت إلى سحنته الفكرية النبيلة فرأت فيها مرآة نفس صافية لا تعرف الخداع والتزوير ؛ ولمحته يبتسم ، فجذبتها إليه ابتسامة لم تجد مثلها إلا زيفا على شفاه الرجال ؛ ونظر إليها ونظرت إليه ، وقال وقالت ، وتحدث قلب إلى قلب ، وتناجيا في صمت ؛ وتركها وهي في نفسه ، ومضى وهو في مجلسها ؛ وأحست في نفسها إحساساً ليس لها به عهد ؛ فتناولت قلمها لتكتب إليه :

« ... سأستعيد ذكرك متكلما في خلوتي لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك ، حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد ؛ وسأتسمع إلى جميع الأصوات على أعثر فيها على لهجة صوتك ، وأشرّح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكارك ... وسأبتسم في المرآة ابتسامتك

« في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك ، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك ...

« سأتخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عاديّ الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل ...

« وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخوراً ، لأنك أوحيت إلي ما عجز دونه الآخرون . أتعلم ذلك ، أنت الذي لاتعلم؟ أتعلم ذلك ، أنت الذي لا أريد أن تعلم ... ! »

وكان حبها إعجاباً بالعقل الجميل ، ثم تقديراً لأستاذها الذي فجر لها ينبوع الشعر والبيان ، ثم إجلالا للصديق الذي وجدت مفزعها إليه ، ثم انعطافاً إلى الرفيق الأنيس الذي كشف لها عن أفراح الحياة ، ثم ... ثم حباً يستأثر بنفسها ويسيطر عليها في غيبه ومشهده فما لها عمل إلا أن تفكر فيه ...

وأصلها الهوى وأصله ؛ وخيل إليها أنها تستطيع أن تكون

أرفعَ محلاً لو أنها منعته بعض ما تمنحه ، وخيل إليه أنه يستطيع وقالت له : « أنا لا أشفق على آلامك ؛ وهل تراني أكره لك النبوغ والعبقرية ؟ » وقالت له كبرياؤه وغيرته وظنونه غير ما قالت صاحبته ؛ ومضى كل منهما إلى طريق والقلب يتلفت ؛ وما عرفت إلا من بعد أنه يحبها حباً لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان ؛ وما عرف إلا من بعد أنها كانت تجافيه لتطلب إليه أن يكون في الحب أجرأ مما كان ...

وعرف وعرفت ، ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر ؛ وظلّ وظلت وبينهما البعد البعيد على هوى وحنين ... حتى جاء الموت فحل العقدة التي استعصت على الأحياء ... !

* * *

إن كثيراً ممن يعرفونها ويعرفونه ليدهشون إذ يقرءون قصة هذا الحب ، وسيتناولونها بالريبة والشك ؛ وسيقول قائل ، وسيدعي مدع ، وسيحاول محاول أن يفلسف ويعلّل ؛ ولا علي من كل أولئك ما دمت أقص القصة التي أعرفها وأستيقنها ، والتي كان لها في حياة الرافعي الأدبية تأثير يُردّ إليه أكثر أدبه من بعد ، وحسبه أنه كان الوحي الذي استمد منه الرافعي فلسفة الحب والجمال في كتبه الثلاثة : رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ، وحسبي أنني قدمت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على أسلوب من العلم جديد

(شبرا) . محمد سعيد العريان

إلى الصديق الذي كتب إلي يسألني أن أنشر له وللقراء رسالة مما كان بين الرافعي وصاحبته : أن يقرأ رسالتها في أوراق الورد ص ١٤٤ — ١٥٠ فلعله يرى فيها لوناً من رسائلها إليه ، وحسبه الآن هذه الرسالة ، وإنها لَسبب من موضوع هذا المقال

العـــدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

— ٤ —

أهلّ أبو الفرج الببغاء في أعقاب عصر ، وفي طلائع عصر آخر ؛ أما العصر الأول فكانت الكتابة فيه جزلة مرسلة ، تسير ذللاً لا أمت فيها ولا عوج ، وترسل طبيعية لا تعمل فيها ولا تكلف ، لا يلتفت الكاتب إلى غير المعنى الواضح الناصع في اللفظ المحكم والنسج المبرم ؛ فقد كابت الأمة حينئذ — أواخر دولة بني أمية وأوائل دولة بني العباس — لا يزال بها رسيس من بداوة ، وكتابها لا يفتأون ناهجين في أساليبهم نهج العروبة الخالصة ، لم تشبها كدرة العجمة . ومن كان منهم أعجمي التفكير فإنه عربي قح في التعبير ، ومن أريدت له من أبناء العجم — وما أكثرهم — المنزلة الرفيعة والحظوة المكينة لدى رجالات عصره وسراة دولته ، فأداته الأولى حذق العربية والتبحر فيها ، وممارسة الأدب والبراعة فيه ، والاحتفال له ، واتخاذ صناعة الكتابة وسيلة زلفاء ، وسبب علياء ، والمشرع الذي يشرعه لا يحلّئه عنه أحد ، ولا يذوده دون وروده ذائد ؛ هو شدو اللغة بين يدوها ، ينهل من قطرها وتبعها . ولقد كان أرباب السلطان يهيبون بمن يتخيلون فيهم مخايل الفطنة والموهبة والذكاء والنبوغ أو يتوسمون منهم فوقاً وحذقاً وبراعة ونبلاً ؛ يهيبون بهم أن يهبطوا أول أمرهم في البادية تشرق فيها قرائحهم عن أفكار صافية ، وتجرى ألسنتهم على الألفاظ السليمة الخالصة ، ثم يعوجوا إلى رهط الحضر يعبُّون من أخيلته السامية ، ويعلُّون من معارفه الزاخرة ، ولم تكن الفارسية قد زحمت العربية إلا بقدر ، والعجمة لا تزال محدودة البيئة والوطن ؛ لأن كلتا الدولتين الغاربة والشارقة ، أو الأموية والعباسية إبان ذلك تبغي مأرباً واحداً ؛ فالأولى تريد لعرشها نهوضاً ولملكها رسوخاً ، على ظبات الرماح وعلى أسلات اليراع ؛ والأخرى تطلب لنجمها الصاعد سطوعاً وتبني ملكاً ثابت الأساس ، فرجالها في حاجة إلى من يملك أسماع جمهور العامة بفصاحته الصافية ، ويخلب ألباب قارئيه من الخاصة ببلاغته الصافية ؛